تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحدا من البشر فإنها ستكفى أمرها ويقام بحجتها فسلمت لأمر ا D واستسلمت لقضائه فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جدا و { قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا } أي أمرا عظيما قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد ا بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال : وخرج قومها في طلبها قال : وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئا فلقوا راعي بقر فقالوا : رأيت فتاة كذا وكذا نعتها ؟ قال : لا ولكني رأيت الليلة من بقري مالم أره منها قط قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادي .

قال عبد ا بن زياد : وأحفظ عن سيار أنه قال : رأيت نورا ساطعا فتوجهوا حيث قال لهم فاستقبلتهم مريم فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها فجاؤوا حتى قاموا عليها { قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا } أمرا عظيما { يا أخت هارون } أي يا شبيهة هارون في العبادة { ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا } أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة فكيف صدر هذا منك ؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي : قيل لها : { يا أخت هارون } أي أخي موسى وكانت من نسله كما يقال للتميمي : يا أخا تميم وللمضري يا أخا مضر وقيل : نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هارون .

ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين الهجستاني حدثنا ابن أبي مريم حدثنا المفضل بن فضالة حدثنا أبو صخر عن القرظي في قوله ا D : { يا أخت هارون } قال : هي أخت هارون لأبيه وأمه وهي أخت موسى أخي هارون التي قصت أثر موسى { فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون } وهذا القول خطأ محض فإن ا تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل فدل على أنه آخر الأنبياء بعثا وليس بعده إلا محمد صلوات ا وسلامه عليهما ولهذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة Bه عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [أنا أولى الناس بابن مريم إلا أنه ليس بيني وبينه نبي] ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي لم يكن متأخرا عن الرسل سوى محمد ولكان قبل سليمان وداود فإن ا قد ذكر أن داود بعد موسى عليهما السلام في قوله تعالى : { ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل

في سبيل ا } وذكر القصة إلى أن قال : { وقتل داود جالوت } الاية والذي جرأ القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر وإغراق فرعون وقومه قال : وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن ا ويشكرنه على ما أنعم به على بني إسرائيل فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى وهذه هفوة وغلطة شديدة بل هي باسم هذه وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد ا بن إدريس سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول ا صلى ا عليه وسلّم إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرؤون { يا أخت هارون } وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال : [ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم] انفرد بإخراجه مسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد ا بن إدريس عن أبيه عن سماك به وقال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن سعيد بن أبي صدقة عن محمد بن سيرين قال أنبئت أن كعبا قال إن قوله : { يا أخت هارون } ليس بهارون أخي موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنين إن كان النبي صلى ا عليه وسلّم قاله فهو أعلم وأخبر وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة قال فسكتت وفي هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جرير أيضا : حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قوله : { يا أخت هارون } الاية قال : كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به وكان هارون مصلحا محببا في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر قال : وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل وقوله : { فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا } أي إنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم وتلعب بهم { كيف نكلم من كان في المهد صبيا } قال ميمون بن مهران : { فأشارت إليه } قالت كلموه فقالوا : على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيا وقال السدي لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها { قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا } أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم ؟ قال : { إني عبد ا } أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد وأثبت لنفسه العبودية لربه .

وقوله : { آتاني الكتاب وجعلني نبيا } تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة قال نوف

البكالي : لما قالو لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديه فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال { إني عبد ا آتاني الكتاب وجعلني نبيا * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا } وقال حماد بن سلمة عن ثابت البناني : رفع أصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول : { إني عبد ا آتاني الكتاب وجعلني نبيا } الاية وقال عكرمة : { آتاني الكتاب } أي قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن المصفى حدثنا يحيى بن سعيد هو العطار عن عبد العزيز بن زياد عن أنس بن مالك Bه قال : كان عيسى بن مريم قد درس التوارة وأحكمها وهو في بطن أمه فذلك قوله : { إني عبد ا آتاني الكتاب وجعلني نبيا } يحيى بن سعيد العطار الحمصي متروك .

وقوله : { وجعلني مباركا أين ما كنت } قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري : وجعلني معلما للخير وفي رواية عن مجاهد : نفاعا وقال ابن جرير : حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال : لقي عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له : يرحمك ا ما الذي أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دين ا الذي بعث به أنبياءه إلى عباده وقد أجمع الفقهاء على قول ا : { وجعلني مباركا أين ما كنت } وقيل : ما بركته ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان وقوله : { وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا } كقوله تعالى لمحمد صلى ا عليه وسلّم : { واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله { وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا } قال : أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت ماأبينها لأهل القدر .

وقوله : { وبرا بوالدتي } أي وأمرني ببر والدتي ذكره بعد طاعة ا ربه لأن ا تعالى كثيرا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى : { وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا } وقال { أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير } وقوله : { ولم يجعلني جبارا شقيا } أي ولم يجعلني جبارا مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك قال سفيان الثوري : الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب وقال بعض السلف : لا تجد أحدا عاقا لوالديه إلا وجدته جبارا شقيا ثم قرأ : { وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا } قال : ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالا فخورا ثم قرأ : { وما ملكت أيمانكم إن ا لا يحب من كان مختالا فخورا } .

قال قتادة : ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص في آيات سلطه ا عليهن وأذن له فيهن فقالت : طوبى للبطن الذي حملك وطوبى للثدي الذي أرضعت به فقال نبي ا عيسى عليه السلام يجيبها : طوبى لمن تلا كتاب ا فاتبع ما فيه ولم يكن جبارا شقيا وقوله : { والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا } إثبات منه

لعبوديته D وأنه مخلوق من خلق ا يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلائق ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات ا وسلامه عليه